

تقارير

صقر أبو فخر
ومنى سكّرية

الفلسطينيون في لبنان

إحياء الذاكرة العربية

تتوافق السنة الحالية (2008) مع الذكرى الستين للنكبة الفلسطينية، وقد بادر الفلسطينيون، في شتى مناهجهم وتجمعاتهم ومخيماتهم، إلى إحياء هذه الذكرى بفاعليات متنوعة شملت المهرجانات الفولكلورية والمعارض الفنية والندوات الثقافية والمحاضرات والمؤتمرات وغير ذلك. وكان من اللافت، في لبنان، أن أجيالاً فلسطينية متعددة تقاطرت في 15 أيار/مايو 2008 على الشريط الحدودي، ورفعت الأعلام الفلسطينية فوق أقرب مسافة من الأراضي المحتلة. كما شهدت المدن اللبنانية والمخيمات نشاطاً مكثفاً ومتعدد الوجوه، منها معرض "فلسطين: ذاكرة وطن وتاريخ شعب" في المركز الثقافي الفلسطيني في عين الحلوة (2008/3/31). وضم هذا المعرض لوحات وصوراً تاريخية ومقتنيات تراثية عرضها فلسطينيون تركوا بيوتهم في سنة 1948، واحتفظوا ببعض الذكريات كالمفاتيح وأوراق الملكية. وهذا المعرض نظمته "الرابطة الفلسطينية للاجئين" (راجع)، وجمعية الغد الثقافية، والدار الفلسطينية للتراث، والجمعية الفلسطينية للدفاع عن حق العودة. ومن الفاعليات الفنية والمهمة فيلم "ظل الغياب" للمخرج الفلسطيني نصري حجاج في أيار/مايو 2008، الذي شكّل حدثاً فنياً مهماً ومميزاً في أن. ويروي الفيلم، بلغة سينمائية شفافة، مصائر الفلسطينيين في المنافي البعيدة والقريبة، فالكاميرا تجول بين قبور الفلسطينيين الذين ماتوا على الطريق نحو فلسطين، والمتناثرة بين نيويورك وفيتنام. وقد عرض الفيلم (90 دقيقة) على شاشة مسرح المدينة في بيروت، وأثار موجة من الحنين والدهشة نتيجة القوة التعبيرية التي تضمنتها مشاهد الفيلم.

في ميدان آخر نظم "اللقاء الثقافي الفلسطيني" في 2008/6/1 ندوة في "نادي متخرجي الجامعة الأميركية" في بيروت بعنوان: "فلسطين في الذاكرة"، تحدث فيها 12 كاتباً عن 12 شخصاً من أعضاء اللقاء الذين نشروا مذكراتهم تباعاً. وهؤلاء هم: أبو ماهر اليماني (تحدث عنه صلاح صلاح): أنيس صايغ (سليمان بختي): جين سعيد مقدسي (بيان نويهض الحوت): حسن أبو رقبة (كمال ناجي): رفعت النمر (جابر سليمان): هشام شرابي (صقر أبو فخر): شفيق الحوت (إلياس سحاب): عبد اللطيف كنفاني (سمير أحمد): نقولا زيادة (ميشال جحا): يوسف شبل (أديب قوار): يوسف صايغ (محمود شريح): سيرين الحسيني (نجلاء نصير بشور). وفي "مسرح بابل" الذي يديره المخرج المسرحي العراقي جواد الأسدي، عرضت مجموعة أفلام فلسطينية على مدى ثلاثة أيام (ابتداءً من 2008/6/22) لكل من ميشال خليفه ومصطفى أبو علي ووزار حسن وهاني أبو أسعد. وهذه التظاهرة السينمائية نظمتها مجلة "الآداب" و"نادي الساحة" و"حملة المقاومة المدنية"، وحملت عنوان "سينما الفقدان". وفي صالة "دوار الشمس" عرضت في 2008/5/24 رسوم كاريكاتيرية لـ "أمل كعوش" التي نالت المرتبة الأولى في مسابقة "حظلة" للرسم الكاريكاتيري التي نظمتها "مؤسسة المورد الثقافي" في القاهرة.

في السياق نفسه افتتحت "مؤسسة غسان كنفاني الثقافية" في 2008/6/25 معرضاً لرسوم الأطفال في عدد من المخيمات الفلسطينية في لبنان، بعنوان: "صار عمرنا خمس سنين، ست سنين، والنكبة صار عمرها 60 عاماً". وعقدت مجموعة "عائدون" (لبنان وسورية) في 2008/6/26 ندوة فكرية في بيروت عن اللاجئين قدمت فيها أربع أوراق لكل من أنيس فوزي قاسم ومحمد المجذوب وشفيق المصري وجابر سليمان، وتولى مناقشة الأوراق كل من صقر أبو فخر وأنيس الخطيب وصلاح صلاح ومحمود العلي وديب دياب ووليد محمد علي وماجد عزام. وأثارت ورقة أنيس فوزي قاسم عن "يهودية الدولة" في إسرائيل نقاشاً واسعاً.

أمّا "جمعية مهرجان الصورة - ذاكرة" فقد بادرت إلى توزيع 500 كاميرا على 500 طفل فلسطيني ما بين 6

12 عاماً، وطلبت إلى الأطفال أن يصوروا ما يرغبون في رؤيته وتصويره. وكان الهدف إعطاء لحظة فرح للأطفال يعيشون حياة بائسة. ومن 13.500 صورة، اختيرت 71 صورة عرضت على مسرح المدينة في بيروت في 2008/6/8، وصدرت في كتاب جميل فيما بعد. وقد اخترنا، بدورنا، أربع صور لتُنشر في "مجلة الدراسات الفلسطينية" مع هذا التقرير.

في 2008/4/4 نظمت "الجمعية الثقافية الاجتماعية" وجمعية "نساء من أجل القدس" معرض التراث الفلسطيني الأول في لبنان في قصر الأونيسكو، وهو، بالفعل، أول معرض تنظمه جمعيات لبنانية عن التراث الفلسطيني، وعرضت فيه مطرقات وخزفيات وحفر على الخشب وصور ولوحات وحلويات. وفي إطار هذا المعرض عُقدت ندوة سياسية تحدث فيها شفيق الحوت، علاوة على سهرة فولكلورية متنوعة. وفيما يلي نص كلمة منى سكرية عن هذا المعرض الذي اخترنا من الصور التي التقطت لمعرضاته، صورتين معبرتين عن التراث الشعبي الفلسطيني:

في الذكرى الستين لنكبة فلسطين باحتلال أرضها من عدو إسرائيلي أت من جهات الأرض الأربع محمولاً على أحقاد دينية وسياسية واستعمارية تشاركت فيها قوى كبرى ومصالح دول وفقدان ضمير وغياب شامل للمعايير الإنسانية والأخلاقية، وتحت شعار حقي بالعودة حق يوم الأرض.. يوم فلسطين العربية، تنادت مجموعة من الشابات المتطوعات والشبان المتطوعين من اللبنانيين إلى التعبير عن إيمانهم بمركزية القضية الفلسطينية بالحد الأدنى بما تسمح به قدراتهم، فأقاموا معرضاً شاملاً بالتعاون والتنسيق مع عدد من الجمعيات الأهلية الفلسطينية المقيمة في مخيمات اللجوء على أرض لبنان، وتحديداً تلك المعنية بالعمل على إبقاء التراث اليدوي الفلسطيني رمزاً للثقافة وتأكيداً للهوية.

هذا التراث الذي ابتدعه الكنعانيون من أبناء أرض فلسطين منذ ما قبل الميلاد، وأمسكت بطرفه نساء فلسطين إلى حيث وأينما استقرت بهن هجراتهن القسرية، لطالما شكل البطاقة الجامعة، والبصمة التي تدل على صاحبها، بالرغم من محاولات العدو الإسرائيلي مصادرة هذا التراث بالتقليد حيناً وبالمحو أحياناً ولم يفلح جمعيتان لبنانيتان هما "نساء من أجل القدس" و"الجمعية الثقافية الاجتماعية" أشرفنا على ترتيب معرض "التراث الوطني الفلسطيني الأول في لبنان" في الفترة ما بين 4 و8 نيسان الفائت تأكيداً منهم لحق شعب فلسطين في أرضهم في يوم الأرض وذكرى النكبة، وبمقدار كبير لمحبة فلسطين وأهلها، فكانت الفكرة لبنانية المضمون وفلسطينية الجهد.

وكان لثلاثين جمعية أهلية فلسطينية من مخيمات أرض لبنان الدور الأكبر في إنجاح المعرض، فلاقى إقبالاً على مدى أيام العرض، كما غصت قاعة الأونيسكو الرئيسية بالحضور للاستماع إلى شفيق الحوت في الندوة التي أقيمت على هامش المعرض ولعرض الذكرى عينها.

تراوحت المعارضات بين ثوب فلسطيني مطرز باليد المصممة على العودة، إلى الكوفية - الرمز، فالخشبيات المحفورة مسجداً أقصى وكنيسة قيامة، والخزفيات الموشاة بالإرث التراثي الفلسطيني، إلى صور لقرى ومدن، وأنواع من الحلوى الخاصة.. فالرقص الشعبي والدبكات والغناء كأنواع من ذاك الفولكلور الآتي من تلك الأرض المقدسة.

وقد هدف المعرض والمشرفون على إقامته على تعميق العلاقات الأخوية بين الشعبين اللبناني والفلسطيني على أرض لبنان، دحضاً منهم لشائعات مغرضة، ولتبيان جماليات المناحي الثقافية لشعب تشرد لكنه بقي تحت الشمس.

لم يكن المعرض الذي نتحدث عنه إلا التعبير - الصورة للتراث الفلسطيني الذي تناقلته الأصابع التي كما أمسكت بالهوية لتأكيد حق العودة، فإنها أمسكت بنسائج الثوب الفلسطيني كرمز وتثبيت لهذه الهوية. فالأزياء الفلسطينية قديمة وأقدم ظهور لها يعود إلى العصر الحجري، إذ إن النقوش التي تدل على الملابس الجلدية وجدت في فلسطين في مغارة أم قطفة وكهوف بئر السبع، وارتدت إلهة الخصب عند الكنعانيين العبادة الفضفاضة المطرزة في منطقة أريحا (سبعة آلاف سنة ق.م). إلى الإبر والدبابيس منذ آلاف السنين واكتشاف رسومات الكنعانيين يلبسون الأثواب الطويلة والقماش المصبوغ والأشرطة المزخرفة على الثياب خلال العصر البرونزي المبكر والمتوسط (المؤرخ فيليب حتي - تاريخ لبنان وسوريا وفلسطين). في حين كشفت آثار بلدة

طيبة في مصر عن أن المصريين رسموا الكنعانيين بملابسهم المزخرفة (4 آلاف سنة قبل الميلاد). وتحدث عدد من المهتمين الفلسطينيين بالتأريخ للتراث الفلسطيني عن وجود ثلاثين نوعاً من التطريز اليدوي الفلسطيني ويمثل غالبية المدن والقرى، وقد غلب عليه لون تراب الأرض والزيتون ورسومات تدل على البيئة الفلسطينية، فبرز الثوب الفلسطيني المطرز بالرسومات التقليدية إلى جانب خارطة فلسطين والعلم الفلسطيني وأغصان الزيتون وحمامة السلام سنة 1988 في مدينة الخليل وسمي يومها ثوب الانتفاضة. والمعرض المذكور لم يكن الأول إلا لكون الجهة التي نظمته لبنانية الهوية، لأن الجمعيات الفلسطينية في مخيمات لبنان وغيرها في الشتات لم تأل جهداً طيلة سنوات النكبة وما قبلها في الإبقاء على نسج حكاية التراث كثمرة إصرار على استمرار المقاومة بأوجهها المتعددة والمتنوعة، المسلح منها أو الثقافي والحضاري، بالإبرة، بالحجر، بالمطرزات اليدوية، بالفولكلور الشعبي، لمواجهة عدو حاول ويحاول الاستيلاء ليس فقط على الأرض وإنما على هذا التراث الجميل، فكان إقدام شركة العال الإسرائيلية للطيران على سبيل المثال على إلbas مضيفاتها العاملات على متنها الثوب الفلسطيني المطرز ولكن بالتنورة القصيرة، وذلك مطلع السبعينات، مما أثار احتجاج الجمعيات الفلسطينية وخاصة مؤسسة صامد.. إلى محاولاتهم أيضاً الاشتراك بالمأكولات الوطنية الفلسطينية في معارض المأكولات الدولية، وأخيراً وليس آخراً، إقدام بضعة أطفال إسرائيليين على تقديم رقصة الدبكة التراثية الفلسطينية أمام الرئيس الأميركي جورج بوش في زيارته الأخيرة إلى إسرائيل والتي أعلن فيها عن يهودية هذا المكان.

لم يكن المعرض المشار إليه إلا واحداً من ميادين المواجهة الفلسطينية المستمرة ضد هذا الكيان الغاصب، وقد اختصرته صورة تلك المرأة الفلسطينية الحاضنة لجذع شجرة زيتونها قبالة الجرافة الإسرائيلية تأكيداً لفلسطينية أرض فلسطين وهوية أهلها. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org

يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعتها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
http://www.palestine-studies.org/ar_index.aspx